الأمر العام بالرحمة والرِّفق بجميع الخلق

قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء، آية: ١٠٧].

فكان رسول الله ﷺ رحمةً بالخَلْق أجمعين، إنسِهم وجِنِّهم، رحمةً بالحيوان والنبات والجماد، وأَعْظِمْ بِالرَّحْمَةِ هداية الناس إلىٰ المعرفة، معرفة الخالق ومعرفة الخلق، وتحديد المنهج القويم في عبادة الخالق، ورحمة الخلق والانتفاع بما سُخِّرَ فيهم من خيرات:

١- فَعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يَضَعُ اللهُ رَحْمَتَهُ إِلاَّ عَلَىٰ رَحِيمٍ**». قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ فَكُلُّنَا رَحِيمٌ. قَالَ: «**لَيْسَ الَّذِي يَرْحَمُ نَفْسَهُ خَاصَّةً، وَلَكِنِ الَّذِي يَرْحَمُ النَّاسَ عَامَّةً**»[(١)].

٢- وقد أمَر النبي ﷺ بالرحمة العامة التي تشمل جميع المخلوقات فقال: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي**

---

(١) أخرجه أبو يَعلىٰ في «مسنده»: ٢٥٠/٧ برقم (٤٢٥٨)، والبيهقي في «شُعَب الإيمان»: ٤٧٩/٧ برقم (١١٠٦٠).

الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[1].

قَالَ الطِّيبِيُّ: لِأَنَّ الرَّحْمَةَ فِي الْخَلْقِ رِقَّةُ الْقَلْبِ، وَالرِّقَّةُ فِي الْقَلْبِ عَلَامَةُ الْإِيمَانِ، فَمَنْ لَا رِقَّةَ لَهُ لَا إِيمَانَ لَهُ، وَمَنْ لَا إِيمَانَ لَهُ شَقِيٌّ، فَمَنْ لَا يُرْزَقُ الرِّقَّةَ شَقِيٌّ.

«مَنْ فِي الْأَرْضِ» بِصِيغَةِ الْعُمُومِ، يَشْمَل: جَمِيعَ أَصْنَافِ الْخَلَائِق، فَيَرْحَمُ الْبَرَّ وَالْفَاجِرَ، وَالنَّاطِقَ وَالْبُهْمَ، وَالْوُحشَ وَالطَّيْرَ[2].

وقال ابن بَطّال المغربي (ت٤٤٩): فيه الحَضُّ علىٰ استعمال الرحمة للخلق كلهم، كافرِهم ومؤمنِهم، ولجميع البهائم -المملوك منها وغير المملوك- والرفق بها، وأن ذلك مما يغفر الله به الذنوبَ ويكفر به الخطايا، فينبغي لكل مؤمن عاقل أن يرغب في الأخذ بحظه من الرحمة، ويستعملها في أبناء جنسه وفي كل حيوان، فلم يخلقه الله عبثًا. ويدخل في الرحمة: التعاهد بالإطعام والسقي، والتخفيف في الحمل، وترك التعدي بالضرب[3].

---

(١) أخرجه الترمذي: ٣٢٣/٤ برقم (١٩٢٤) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) المُبارَكْفُوري، «تُحفة الأَحْوَذِي، بشرح جامع الترمذي»: ٥١/٦، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر.

(٣) ابن بَطَّال، «شرح صحيح البخاري»: ٢١٩/٩، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد.

وقال العارف البوني: فإن كان لك شوق إلىٰ رحمة من الله فكن رحيمًا لنفسك ولغيرك، ولا تستبد بخيرك، فارحم الجاهلَ بعلمك، والذليلَ بجاهك، والفقيرَ بمالك، والكبير والصغير بشفقتك ورأفتك، والعُصاة بدعوتك، والبهائم بعطفك ورفع غضبك، فأقربُ الناس من رحمة الله أرحمُهُم لخلقه، فكل ما يفعله من خير دق أو جلَّ فهو صادر عن صفة الرحمة[1].

٣- وقال ﷺ: «**ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يُغْفَرْ لَكُمْ؛ وَيْلٌ لِأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ**»[2].

(**ارْحَمُوا تُرْحَمُوا**)؛ لأن الرحمة من صفات الحق التي شمل بها عباده، فلذا كانت أعلامًا اتصف بها البشر، فندب إليها الشارع في كل شيء حتىٰ في قتال الكفار والذبح وإقامة الحجج وغير ذلك. (**وَاغْفِرُوا يُغْفَرْ لَكُمْ**)؛ لأنه -سبحانه وتعالىٰ- يحب أسمائه وصفاته التي منها الرحمة والعفو، ويحب من خلقه من تَخلَّق بها. (**وَيْلٌ لِأَقْمَاعِ الْقَوْلِ**)، أي: شِدَّة هَلَكَةِ من لا يعي أوامر الشرع ولم يتأدب

(١) المُناوي: «**فيض القدير، شرح الجامع الصغير**»: ٤٢/٤، المكتبة التجارية- مصر، ١٣٥٦.

(٢) أخرجه أحمد في «**المسند**»: ٩٩/١١ برقم (٦٥٤١)، والبخاري في «**الأدب الْمُفْرَد**»: ١٣٨/١ برقم (٣٨٠).

بآدابه، والأَقْمَاعُ جمع قِمَعٍ: الإناء الذي يجعل في رأس الظرف ليملأ بالمائع، شَبَّهَ استماعَ الذين يستمعون القول ولا يَعُونَهُ ولا يعملون به بالأقماع التي لا تَعِي شيئًا مِمَّا يُفْرَغُ فِيهَا[1].

٤- وقد أمر النبي ﷺ بالرفق في كل شيء، ولذلك يجب على المسلم إذا دخل داره أو خرج منها ألّا يدفع الباب دفعًا عنيفًا؛ لأن هذا منافٍ للُّطف والرفق، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ**»[2].

والرحمة العامة التي أمر بها النبي ﷺ دائرة أوسع وأشمل من كل معاني المحافظة والرعاية للبيئة الإنسانية، التي يمكن أن نجد دعواها في أي شريعة أو فلسفة، في أي مكان أو زمان غير الإسلام.

(١) المُناوي، «فيض القدير، شرح الجامع الصغير»: ١/٤٧٤.
(٢) أخرجه مسلم: ٤/٢٠٠٤ برقم (٢٥٩٤).

استخلاف الإنسان في الأرض هو أمر من الله -تعالىٰ- بالمحافظة عليها ورعايتها، وتوكيلٌ منه سبحانه للإنسان بإعمارها وإصلاح ما يطرأ عليها من فساد.

١- قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [سورة البقرة، آية: ٣٠].

٢- قال تعالىٰ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة ص، آية: ٢٦].

يلاحظ في الآية الأولىٰ حرصُ الملائكة علىٰ الأرض -من حيث إنها مخلوقة لله- وخشيتُهم علىٰ ما يصيبها من الفساد بفعل الإنسان، (قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا). وفساد الأرض يتعلق بالمكان والزمان. (وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ). وسَفْكُ الدماء يتعلق بالإنسان، إذن فقد كانت خشيتُهم تتعلق بالإنسان أيضًا؛ لأنه مخلوق لله، يستحق الرحمة والرعاية.

وتظهر الوَحدة البِنائية في النَّص من خلال عرضها لثُنائية الأرض والإنسان في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [سورة البقرة، آية: ٢٠٥] (لِيُفْسِدَ فِيهَا) فساد الأرض (وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ) هلاك الإنسان بهلاك الغذاء وهلاك النسل.

فقد علمت الملائكة مِن خلْق آدم أنه سيكون مختارًا، يختلف بذلك عن غيره من الكائنات والمخلوقات، والمختار يجوز في حقه ورودُ المخالفة للمنهج، علىٰ عكس الكائنات التي تُؤْمَرُ فتطيع، تُعَلَّمُ فَتَعْلَم، فلا يمكنها مخالفة المنهج، ولا تتعلق إرادتها بذلك. ونظرت الملائكة إلىٰ ما رُكِّبَ في الإنسان من انفعالات ورغبات وشهوات، وظنَّت أنه حتما سَيَدْفَعُهُ اتِّباعُهَا إلىٰ النُزوع إلىٰ التقاتل والهَرْج من أجل السيطرة والتسَلُّط.

ولكن الملائكة حينما بَيَّنَ لهم الله -تعالىٰ- ما خَفِي عنهم في خلق آدم من قدرة علىٰ تحصيل العلم والمعرفة وإعادة تراكيبها واستدعائها (قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ).

ويستفاد من ذلك أن فساد الإنسان والبيئة مُتعلِّق بفعل الإنسان وسلوكه، فإن غلبت عليه الشهواتُ والهوىٰ، وحاد عن العقل والعلم

كان هلاكًا لنفسه ولغيره، وإن غلب عقلُه وتدبره، وسعىٰ لتحصيل العلم والحكمة فإنه سيوافق السنة والمنهج (الحق) الذي قام عليه الخلق، ويصير فعله إعمارًا وبناءً وإبداعًا.

ويلاحظ في الآية الثانية ما جاء فيها من ذكر الخلافة والأرض والحق، فالحق هو الله -سبحانه وتعالىٰ-، والحق هو الذي قام عليه الخلق، فإن الله -سبحانه وتعالىٰ- لم يخلق شيئًا عبثًا أو لعبًا، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [سورة الأنبياء، الآيات: ١٦-١٨].

قال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [سورة المؤمنون، الآيتان: ١١٥-١١٦].

فالله -سبحانه وتعالىٰ- عندما جعل داود خليفة في الأرض طلب منه الحكمَ بالحق، والحقُّ مرادف العدل والصلاح وضدُّ العبث واللعب والفساد، وأصل المُلك الذي أُوتِيَهِ داودُ الخليفةُ هو القيام بالحق؛ ولذلك أعقبه بقوله: (وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ)، والهوىٰ هو

الجانب الذي ظهر للملائكة أولًا في خلق آدم، فكان حكمُهم على الإنسان بأنه سيفسدُ في الأرض ويسفك الدماء. والحقُّ هو العقل والعلم، وهو الجانب الذي خفي عن الملائكة أول الأمر.

وقد أمر الله -سبحانه وتعالى- النبيَّ محمدًا ﷺ أن يحكم بالحق والقسط؛ لأن ذلك طريق المحبة والقربى من الله، قال تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [سورة المائدة، آية: ٤٢].

٣- وسيادة الإنسان على الكون سيادة انتداب، وليست سيادة تَمَلُّك وتَسَلُّط مُطلَق، فالإنسان قائم بما يقوم به المُوَكَّل من الحفظ والرعاية، وذلك مفهوم الخلافة الذي جاء به الإسلام.

ولذلك فالإنسان مسئول عن الأمانة التي حَمَلَهَا، مسئول عن إحسانه وإتقانه أو إساءته وإفساده، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سورة الملك، آية: ٢].

وقال تعالى في نفس السورة بيانًا للإحسان في العمل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [سورة الملك، آية: ١٥].

فقد سَخَّرَ الله الأرضَ وجعلها مُذَلَّلَةً للإنسان كي يستفيدَ من خيراتها، فوجب عليه العملُ والسعي؛ لتحصيل نفعها والإصلاح فيها.

وقد جاء في سُنّة النبي ﷺ ما يؤكد علىٰ أهمية العمل بالنسبة للإنسان، وأهمية التربية علىٰ المنهج الذي يمنح الإنسانَ العزمَ والقوة والكرامة في حياته باستهدائه سُبُلَ العمل الشريف:

(أ) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ يَسْأَلُهُ فَقَالَ: «**أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ؟**». قَالَ: بَلَىٰ حِلْسٌ[1] نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ وَقَعْبٌ[2] نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ. قَالَ: «**ائْتِنِي بِهِمَا**». فَأَتَاهُ بِهِمَا فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ وَقَالَ: «**مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ؟**». قَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ. قَالَ: «**مَنْ يَزِيدُ عَلَىٰ دِرْهَمٍ**». مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا، قَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ. فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الأَنْصَارِيَّ، وَقَالَ: «**اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَىٰ أَهْلِكَ[3] وَاشْتَرِ بِالآخَرِ قَدُومًا[4] فَأْتِنِي بِهِ**». فَأَتَاهُ بِهِ فَشَدَّ

(١) (الحِلْس): من معانيه: أنه اسم لما يُبسط تحت حُرِّ الثياب.
(٢) (القَعْبُ): قَدَحٌ من خشب مُقَعَّر.
(٣) أي: ادفعه إلىٰ أهلك.
(٤) (القَدُوم): هو آلة النجارة.

فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ عُودًا بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ: «اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ وَلاَ أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا». فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشَرَةَ دَرَاهِمَ، فَاشْتَرَىٰ بِبَعْضِهَا ثَوْبًا وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لاَ تَصْلُحُ إِلاَّ لِثَلاَثَةٍ: لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ[1]»[2].

(ب) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ عَلَىٰ صُبْرَةِ طَعَامٍ[3] فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلاً، فَقَالَ «مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟» قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «أَفَلاَ جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي»[4].

---

(١) (الدقعُ): هو الفقر الشديد.
(غُرْمٌ مُفْظِع): هو أن تَلْزَمُهُ الدّيون الفظيعة الفادحة حتىٰ تتفرع به؛ فتحل له الصدقة، فيُعطىٰ من سهم الغارمين.
(موجع): أي يتحمل حمالة في حقن الدماء، وإصلاح ذات البَيْن، حتىٰ يؤديها.
انظر: بدر الدين العَيني، «شرح سنن أبي داود»: ٦/٣٨٩- مكتبة الرُّشد.

(٢) أخرجه أبو داود: ١/٥١٦ برقم (١٦٤١) بهذا اللفظ، والترمذي: ٣/٥٢٢ برقم (١٢١٨) مختصَرًا، وقال: حديث حسن.

(٣) (الصبرة): هي ما جُمِع من الطعام بلا كيل، والمراد بالطعام: جنس الحبوب المأكول.

(٤) أخرجه مسلم: ١/٩٩ برقم (١٠٢).

فدعوة الإسلام دعوة إلىٰ العمل الشريف، ورسالتُه تقول للإنسان: اعمل واجتهد في التنمية والإصلاح، وسيرىٰ اللهُ عملَك ورسولُه، وستجازَىٰ عليه، ولكن بشرف ودون غِشٍّ أو خداع. فالعمل بناء، والشرف منهج، والعمل لا يكون إيجابيًّا إن افتقد الشرف والأمانة.

فالغِشُّ يهدمُ السلامَ الاجتماعيَّ وَيُهْلِكُ الحركةَ الاقتصادية؛ لإحداثه حالةً مِنَ انْعِدَامِ الثقة بين الْمُتَبَايِعَيْنِ، كما يَقْضِي علىٰ السلام النفسي: بإشاعته الخوفَ والقلق، وإلقائِهِ التوجُّسَ والرّهبةَ بين الناس، وكل ذلك من مظاهر الفساد في حياة الإنسان.

دعوة الإسلام إلى النظر والتأمُّل في الكون

وهي دعوة للمحافظة على البيئة باكتشاف أسرارها ورعاية جمالياتها، فالحركة في الكون تُعَدُّ خِطابًا واضحًا ورسالة دالَّةً على عظمة الخالق، ولكن لا يستطيع قراءتها إلا ذوو النظر والعقل وأصحاب التأمل والفكر، ولذلك كان العلماء المؤمنون أكثر الناس يقينا في وجود الحق ووحدانيته.

ومصادر المعرفة لدى المسلم تتوزع بين الوحي والكون، ولا يصل المسلم إلى اليقين إلا عندما يأخذ عن كِلَيهما ويُحسِن النظر فيهما.

والوحي والكون كلاهما من الله من عالَم الأمر ومن عالَم الخلق، خاطبَ بهما عقلَ الإنسان وحِسَّه، ولكن الوحي تميَّز بالمباشرة والوضوح في توجيه الإنسان وتحديد المنهج السَّويّ، الذي يرسم له خُطَّةً يَسلُكُها في تعامله مع الكون ومع نفسه أيضًا، بالشكل الذي يجعله يستفيد ويستمتع بما سُخِّرَ له في الكون.

والنظر والاعتبار في الكون والوحي فرضٌ واجبٌ في الشريعة

الإسلامية، بل هو من أول الواجبات، فهو طريق مباشر يوصل العبدَ بربه، ومن ناحية أخرىٰ فالنظر حقٌّ للفرد في مجتمعه الإسلامي؛ لأنه طريقه إلىٰ العلم والمعرفة، فلا بد أن تُيَسَّر له كلُّ الأسباب والمُقوِّمات التي تُمَكِّنُه من الإحسان فيما تَصَدَّرَ له من بحث. فإن فَقِهَ أفرادُ المسلمين وجماعاتُهم إلىٰ هذا الواجب ارتقت علومُهم وزادت معارفُهم، وكانت بلادهم نموذجًا للحضارة الإنسانية المتكاملة.

١- والمسلم مَدْعُوٌّ بِنَصِّ الوحي إلىٰ النظر في جمال الكون وإحكام صُنعِه:

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [سورة الملك، الآيات: ٣-٥].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ﴾ [سورة السجدة، آية: ٧].

وقال تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سورة فصلت، آية: ٥٣].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ

ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة البقرة، آية: ١٦٤].

ويلاحظ ختامُ الآية بقوله: (لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) مما يَعني أنه لا يَنتفِع بتلك الدعوة الصريحة إلىٰ التأمل والنظر في الكون، فيَصِلُ من ورائها إلىٰ الإيمان بالخالق وإدراك سُنَنَهِ في خلقه- إلا أصحاب المنهج العقلي الموضوعي، أولئك الذين يجعلون عقولَهم مسيطرةً علىٰ رغباتهم وشهواتهم، وأولئك الذين يُهْدَوْنَ إلىٰ الحق الذي قام عليه الوجود.

ويلاحظ في الآية أنها تحدثت عن ثلاثة أشياء يمثلون الوجود، وهي: المكان (الأرض والسماء)، والزمان (اختلاف الليل والنهار)، والماء.

٢- وفي عبادات المسلمين ما يقوم أصلُه علىٰ التأمل والتفكُّر والإجلال لما في الكون من خلق وإبداع، وذلك كصلاة الكُسُوف والخُسُوف، وصلاة الاستسقاء.

قال ﷺ: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لاَ يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَقُومُوا فَصَلُّوا**»[١].

---

(١) متفق عليه، البخاري: ٣٥٣/١ برقم (٩٩٤)، ومسلم: ٦٢٨/٢ برقم (٩١١).

٣- والنظر والاعتبار يوجب على الإنسان الإيمانَ بوجود الخالق ووحدانيته، فمن الآيات التي تحدثت عن الإرادة العُليا لله في الكون، وأنه سبحانه لم يترك شيئًا للصُّدْفَة أو الطبيعة تتحكم فيه وتُدبِّر شئونَه بنفسها:

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [سورة النمل، آية: ٦١]. وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [سورة الفرقان، آية: ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [سورة الرحمن، الآيتان: ١٩-٢٠].

فالبحران مصدرهما السماء، وكلاهما من ماء، فسبحان من مَيَّزَ لكلٍ منهما: مكانَه، ومقداره، وتوزيعه في مساحات اليابسة، بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر. وكلاهما على نفس الدرجة من الأهمية للحياة، وفي بَغْيِ أحدهما على الآخر فساد عظيم.

٤- ودَعَت الآيات الإنسان إلى النظر في طعامه:

قال تعالى: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ [سورة الكهف، آية: ١٩].

(فَلْيَنْظُرْ)، أي: فليبحث ويفتش عن الطعام الصالح الزكي، وفي ذلك دعوة إلىٰ الانتقاء الذي يدعو الصانع إلىٰ تحسين صناعته والزارع أن يهتم بزراعته، طالما أن المسلم سيبحث عن الأجْوَد والأحسن، وسيتدرب علىٰ التذوق والاختيار، ولن يرضىٰ من البيئة عطاءً إلا أجودَهُ وأحسنَهُ. ولن يقبل ممن يقوم علىٰ الرعاية والتنمية إلا أحسن العمل وأتقنه.

وقال تعالىٰ: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [سورة عبس، الآيات: ٢٤-٣٢].

فالنظر في الآية الأولىٰ: تعلَّقَ بمسألة الانتفاع والتسخير، وفي الآية الثانية: تعلَّقَ بمسألة الاستدلال والاستهداء المعرفي، فالأُولىٰ: تستلزم الحضَّ علىٰ العمل والإحسان، والثانية: تستلزم الإيمان بخالق هذا الكون وصاحب النِّعَم المُودَعة فيه؛ فقد سَخَّرَ له سبيلَ الطعام مُيَسَّرًا مُذَلَّلًا.

٥- ودَعَت الآيات الإنسانَ إلىٰ التفكُّر في خلق الحيوان وتسخيرِه لنفع الإنسان:

قال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [سورة النحل، آية: ٦٦].

ولا يمكن للإنسان معرفةَ قدرة الخالق إلا بالنظر والاعتبار في ملكوته، وفي الآية دلالة علىٰ قدرة الله علىٰ استخلاص الصلاح والخير والصفاء من رَحِمٍ ضده، فالحق -سبحانه وتعالىٰ- يضع يدَ الإنسان علىٰ الآيات والمعاني التي تجعله قادرًا علىٰ أداء الأمانة التي حَمَلَها، وذلك لا يكون إلا بالسعي إلىٰ إعمار الكون بإخراج المصالح والحقوق والخيرات من رَحِمِ المفاسد والشرور.

٦- ودَعَت الآياتُ الإنسانَ إلىٰ النظر في الرياح باعتبارها أولُ حركةٍ إعمارية في الحياة:

قال تعالىٰ: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ [سورة الحجر، آية: ٢٢].

وفي الآية هدايةٌ إلىٰ دَور الرِّياح في النَّماء والحياة، بأمر مَن أرسلها وجعلها سببًا في تلقيح النبات وزيادته، وليست الرياحُ بذاتها تفعل، وإنما هي فقط تأتَمِر بأمر مُرسِلِها، وفِعْلُهَا يأتي تبعًا لأمره. ودليل ذلك أنها قد تأتي وبالًا ودمارًا لقوم، وفي نفس الوقت خيرًا

ولقاحًا لآخرين، فهي مُسَخَّرة ومؤتمرة، وليس فعلها من خير أو شر بإرادة منها.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ [سورة فاطر، آية: ٩].

فالرياحُ تُعتَبر المرحلةُ الأولىٰ في دورة الحياة الأرضية؛ ولذلك نرىٰ الآيةَ ابتدأت بلفظ الجلالة تأكيدًا علىٰ أنه سبحانه المتفردُ بإرسالها مُحَرِّكةً للسحاب مبتدأةً لحركة الحياة علىٰ الأرض.

٧- ودَعَت الآياتُ الإنسانَ إلىٰ التفكُّر في جماليات الكون، وفي ذلك دعوةٌ للمحافظة علىٰ ما في البيئة من منافعَ وجمال:

قال تعالىٰ: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ [سورة الحج، الآيتان: ٥-٦].

إذن فهناك ارتباطٌ بين الجمال والحق، فالحقُّ يقتضي من الإنسان الحفاظَ علىٰ أصل الوجود وعلىٰ جمالياته.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [سورة لقمان، آية: ١٠].

وقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [سورة النمل، الآيات: ٦٠- ٦٢].

وفي الآية ارتباطٌ بين الجمال وبين الخلافة في الأرض، فقد جَعَلَنا المولى -تبارك وتعالى- خلفاءَ في الأرض؛ من أجل الاستمتاع بهذا الجمال، وتنمية وجوده، والمحافظة عليه. ووضوحُ هذا المفهوم في التصور الإسلامي من شأنه أن يجعلَ المسلمَ مُبْدِعًا في كل صناعة أو عمل.

وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة النحل، الآيات: ٣-٨].

بدأت الآياتُ بالحديث عن الحق الذي قام عليه خلقُ السموات والأرض، ثم تحدثت عن خلق الإنسان من نطفة، ثم تبادلت الآياتُ الحديثَ عن الضروريَّات والتحسينيات، أي المنافعَ المباشرة والجمال والزينة.

فالآية الخامسة: تحدثت عن الدِّفء والأكل والمنافع في الأَنْعام، والآية السادسة: تحدَّثَت عن البهجة التي يُحَصِّلُها الإنسانُ من نظره إلىٰ جمال الأَنعام، والآية السابعة: عادت تتحدث عن منفعة الأنعام في حَمل أثقال الإنسان إلىٰ المسافات التي لا يتيسر له بلوغُها إلّا بحصول المشقة البالغة، والآية الثامنة: تحدثت عن المُتعة في ركوب الأنعام للتنزه والتزيُّض، ومن أجل الزينة والمتعة. فقد تحدثت الآية السابقة عن الحمل، أي: النقل، فتكون المِنَّة في (لِتَرْكَبُوهَا) هي الجمال واللذة.

وعلىٰ الإنسان الاستفادةُ من التسخير الضروري والجمالي حتىٰ تحصل له الصحةُ المادية والمعنوية، الجسدية والنفسية والعقلية، وعليه حينها أن يحافظ علىٰ البيئة في بُعدَيْها: المنافع، والجماليات. وعليه أن يعملَ ويُحسِن ويتقن ما يحقق له المنافعَ، ويحقق له الإبداعَ الجمالي الذوقي.

وقال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [سورة فاطر، الآيتان: ٢٧-٢٨].

مما يعكس أن رَوْحَ الله في خلق الكائنات ضَمَّت التنوعَ الشكليَّ، والتناسقَ اللوني، مما يحدث انبهارًا ومتعة بصرية لا فطور فيها.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ ﴾ [سورة فاطر، آية: ١٢].

سَخَّر لنا الشراب العذب والمِلح واللحم الطَّرِيَّ، ويلاحَظ هنا الأوصاف، فالماء العذب سائغ شرابه، والمِلح أُجاج، واللحمُ طَرِيّ، مما يعني أن المولىٰ -سبحانه وتعالىٰ- لم يَهَب لنا مُقَوِّماتِ الحياة فقط بل جعل فيها اللذة والجمالَ، ثم أعقب ذلك بذكر المِنَّة في خلق الحِليَةِ المُسْتَكِنَّة في قاع الأنهار والمحيطات كاللؤلؤ، نَلْبَسُه لِنَتجمَّلَ به ونَتَزَيَّن.

دعوة الإسلام إلى عمارة الأرض

١- قال تعالىٰ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [سورة هود، آية: ٦١].

أي أمركم بعمارة الأرض، والعمارةُ تشملُ كلَّ عَمَل فيه إصلاح للأرض وتوفيرُ ضروريات المعاش فيها. والكون كلُّه بكل مظاهرِه وموجوداته مُسَخَّرٌ للإنسان، قائم علىٰ خدمته؛ فوجب عليه عمارتُه والمحافظة عليه.

وإعمار الكون مظهرٌ تتحقق فيه عبوديةُ الإنسان لخالقه؛ لأن المعرفةَ بأسرار الكون توصل الإنسانَ إلىٰ التماس نصيب من حكمة الله في الوجود، ويحتاج الإنسانُ من أجل القيام بوظيفة الخلافة، وتنفيذِ أمر الخالق بإعمار الأرض- أن يُطيل التدَبُّرَ والاعتبارَ في العلاقات الكلية والجزئية التي تجمعُ مفرداتِ الكون وتتحكمُ فيه، وبمعنى آخر: إن صلاح منهج الإنسان في الإعمار مرتبط بتكوين نظرة كُلِيَّة عن السبب الأول في وجود الخلق، وعن طبيعة العَلاقة التي تربط الإنسان بذلك السبب، والعَلاقة التي تَربِطه بِبَقِيَّةِ الكائنات في الوجود.

ويمكن فهمُ إعمار الأرض على أنه بذلُ الجهد لإقامة مجتمع فاضل عادل، تتحقق فيه للإنسان الكرامة التي أرادها الله له، وتتحقق للإنسان فيه الحرية التي هي مَناط المسئولية، وإقامة مجتمع: يسالم الطبيعة، ويسالم الإنسان، وتَسُود فيه قِيَم المحبة والرحمة.

٢- ولا بد أن تشمل عمليةُ الإعمار المطلوبة شرعًا جوانبَ الحياة الثلاث: المادَّة، الرُّوح، العقل، بتوازن وانضباط، بحيث لا يطغى جانب على آخر، وهذا ما فعله النبي ﷺ عندما هاجر إلى المدينة وأقام المسجد، وكان أول إعمار يقوم به في المدينة، وكان عملًا إعماريًّا شمل الجوانب الثلاث من الحياة، كان إقامةً للبُنْيان وللإنسان، فقد كان مكانًا، يتجمع فيه المسلمون، ويَلجأُ إليه المعوزون، وتُسْتَقْبَلُ فيه الوفودُ، وتُؤَدَّى فيه العباداتُ الروحية، وتُلْقَى فيه الدروس والتعاليم التي ترسم المنهج، وكانت تُعْقَدُ فيه الألوِيَةُ، وتوزعُ فيه المهامُّ العسكرية، وتُرسم فيه الخُطَطُ، وتمارَسُ فيه الدعوةُ إلى الدين.

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [سورة الأنعام، آية: ١٤١].

والشاهد في الآية أنها جمعت بين مخاطبة العقل بالدعوة إلىٰ النظر والتأمل في القدرة والحكمة والجمال والتَّنَوُّع، وفي ذلك سعادة العقل بتحقيق المعرفة والعلم، وبين مخاطبة الحَواسِّ ودعوتها إلىٰ الأكل، وفي ذلك استمتاع الجسد بالتسخير المادِّي، وبين مخاطبتها الروح ودعوتها إلىٰ التزكية والطهارة حيث أَمرت الإنسان بالعطاء والبذل، مما يحقق للنفس والروح سعادتها وطمأنينتها. وخَتَمَت الآيةُ أوامرَها بعدم الإسراف، مما يعني: ضبطَ العلاقات والمقاديرَ.

٣- وعملية إعمار الأرض كما يتصورها الإسلامُ ذات شِقَّين، الأول: يتعلق بصلاح المنهج، والثاني: يتعلق بإتقان العمل والبناء وبذلِ الوُسع فيه.

ولا بد من انضباط كل من الشِّقَّيْن حتىٰ تنجح تلك العملية، وأساسُ صلاح البناء صلاحُ المنهج:

(أ) قال تعالىٰ: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ [سورة الحج، آية: ٤٥]

(وَهِيَ ظَالِمَةٌ): فساد المنهج؛ والذي أدىٰ إلىٰ فساد البناء والبيئة.

قال الطبري: «فَبَادَ أَهْلُهَا وَخَلَتْ، وَخَوَتْ مِنْ سُكَّانِهَا، فَخَرِبَتْ وَتَدَاعَتْ، وَتَسَاقَطَتْ عَلَى عُرُوشِهَا، يَعْنِي عَلَى بِنَائِهَا وَسُقُوفِهَا...

وَمِنْ بِئْرٍ عَطَّلْنَاهَا، بِإِفْنَاءِ أَهْلِهَا، وَهَلَاكِ وَارِدِيهَا، فَانْدَفَنَتْ وَتَعَطَّلَتْ، فَلَا وَارِدَةَ لَهَا، وَلَا شَارِبَةَ مِنْهَا.... (وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ): رَفِيع بِالصُّخُورِ وَالْجَصِّ، قَدْ خَلَا مِنْ سُكَّانِهِ؛ بِمَا أَذَقْنَا أَهْلَهُ مِنْ عَذَابِنَا بِسُوءِ فِعَالِهِمْ، فَبَادُوا وَبَقِيَت قُصُورهُمُ الْمُشَيَّدَةُ خَالِيَةً مِنْهُمْ»[1].

(ب) وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [سورة الكهف، آية: ٥٩].

وقد ذكر ابن خلدون في «مقدمته» فصلًا في أثر الظلم وما يفعل في العُمران والحضارة: (فصلٌ في أن الظلم مُؤْذِنٌ بخراب العمران)، قال: «واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم، وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه، وذلك مُؤْذِنٌ بانقطاع النَّوع البَشَري، وهي الحكمة العامة المُراعية للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة من: حفظ الدِّين،

(١) الطَبَري في تفسيره «**جامع البيان، في تأويل القرآن**»: ١٨/٦٥٤، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة ٢٠٠٠م.

والنفس، والعقل، والنَّسل، والمال»[1].

ومن المُشاهَد أنه إذا صاحب التَّقَدُّمَ المادِّي البِنائيَّ تَخَلُّفٌ عن القِيَمِ والفضائل الأخلاقية- فَسَدت البيئةُ، وانهدمت الحضارة، ففساد المنهج يمثل اصطدامًا للإنسان بالكون؛ يؤدي حتمًا إلىٰ شقاوته، ومعاناته للقلق والحَيْرَة؛ وذلك لأن الكون له منهج وسُنَن، وله عَلاقة بخالقه، فيها تسبيح وسجود، فإذا تصرف الإنسان بعشوائية وفَوضاوية دون نظام أو سُنَّة، وإذا قطع علاقته بخالقه ومصدر الوحي والمنهج- كان مصيره إلىٰ الجهل؛ لأنه قد انقطعت صلتُه بمَصدَرَي المعرفة: الكون، والإله. وصار متصادمًا مع كل الكائنات من حوله، يُفسِد حياتها وحياته من حيث يدري ومن حيث لا يدري.

(ج) وقال تعالىٰ: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [سورة هود، الآيتان: ١١٦-١١٧].

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ٦٩٩/٢، تحقيق: د/ علي عبد الواحد وافي، مكتبة الأسرة ٢٠٠٦م.

والآيات تشرح مَنهجًا مُحكمًا مترابطًا، غايته أنه ينهىٰ الإنسان عن الظلم، ويُوجِب عليه دفعه بالحق.

(وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ): مباشري الفسادِ بالظلم والإجرام، فسبب استئصالِ الأمم المُهلَكة فشوُّ الظلمِ واتباعُ الهوىٰ، مع ترك النهي عن المنكرات.

(د) وقال تعالىٰ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ [سورة محمد، آية: ٢٢].

إن تَوَلَّيْتُم عن المنهج الإلهي ستكون نتيجةُ أفعالكم مؤديةً إلىٰ الفساد والهدم والقطيعة، الفساد علىٰ مستوىٰ الأرض، والقطيعة علىٰ مستوىٰ الإنسان، مما يُذَكِّرُ بالوَحدة البِنائية التي أشرنا لها من قبل.

(هـ) قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [سورة البقرة، آية: ٢٠٥].

فالتَّولي والإعراض عن المنهج الحق يؤدي حتما إلىٰ الفساد البيئي علىٰ مستوىٰ الإنسان ومستوىٰ الأكوان.

والوَحدة البِنائية في النص القرآني إضافة إلىٰ الوَحدة البنائية

في خلق الأكوان لهي أكبر الدلائل علىٰ وَحدانية الخالق الذي له الخلق والأمر.

٤- والمولىٰ -سبحانه وتعالىٰ- يقرن دائمًا الإيمان (المنهج) بالعمل الصالح (البناء)، ويقرن الحقَّ في الانتفاع بالواجب في العمل والإحسان:

(أ) قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [سورة المؤمنون، آية: ٥١].

(ب) وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾ [سورة النمل، آية: ١٩].

فالنبي سليمان عليه السلام لما وجد الطبيعةَ قد استجابت له وسُخِّرَتْ له تسخيرًا خاصًّا، فصار يعلم لغةَ تخاطب الحشرات والطير- دعا ربَّه أن يكون شاكرًا له علىٰ هدايته إلىٰ صلاح المنهج، وأن يُعِينَه علىٰ الاستمرار في أداء العمل الصالح (البناء) الذي يرضاه الله.

(ج) وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ٢٧ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سورة ص، الآيتان: ٢٧-٢٨].

فالذين آمنوا وعملوا الصالحات اتبعوا المنهج وقاموا بالبناء، وهم الذين يؤمنون أن الله -سبحانه وتعالىٰ- قد أقام خلق السموات والأرض علىٰ الحق والعدل، ولم يَخْلُقْهُما عَبثًا أو لعبًا أو باطلًا، أما المفسدون في الأرض فهم الذين كفروا بالمنهج ولم يعملوا الصالحات؛ وذلك لسوء ظنِّهم واعتقادهم بربهم أنه خَلَقَ الكون عَبَثًا وباطلًا.

دعوة الإسلام إلى النهي عن الفساد والإفساد

النظام الكوني له سُنَن وقوانين مقدرة محكمة إن خرج عنها قِيد أنمُلة فَنَت أجزاؤه وتحطمت، وفي ذلك يقول تعالىٰ: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة يس، آية: ٤٠].

وقد خلق الله -عز وجل- الكونَ وجعله يقوم علىٰ عَلاقات تَوافُقِيَّة بين أجزائه، جاءت صورها في المدِّ والجَزْر، وفي قوىٰ الجذب والطرد التي تحكم حركة النجوم في أفلاكها وحركة الإلكترونات في ذرَّاتها، ولو تغلبت قوىٰ الجاذبية علىٰ قوىٰ التنافر أو العكس لحدث اختلال عظيم وفسادٌ في الكون.

وهكذا فالنفس البشرية في علاقاتها مع الآخر -سواء كان جمادًا أو إنسانًا- مُرَكَّبَةٌ من قُوىٰ الجذب والطرد، وتأتي صورها في الحب والكره أو السلام والحرب، ولا بد أن يكون الإنسان متوازنًا في علاقاته حتىٰ لا يُحْدِثَ خللًا أو اضطرابًا في حياته.

١- قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ

أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [سورة البقرة، آية: ٢٧].

(يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ)، أي: يُفسِدون المنهج، (وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ)، أي: يحدثون اختلالًا في العلاقات التَّوَازُنِيَّة بين مفردات الوجود، بِقَطْعِ ما حَقُّهُ الوَصْل ووَصْلِ ما حَقُّهُ القَطْع، فتضطرب عَلاقة الإنسان بالإنسان، وعَلاقة الإنسان بالله، وعَلاقة الإنسان بالكون، وهذه المعادلة تكون نتيجتها الخُسران والبَوَار في الدنيا بفساد الحياة وتحصيل الشقاء، وفي الآخرة بضياع النعيم.

٢- وقد جعل الله الأصلَ في فطرة الإنسان وفي خلق الأكوان الصلاحَ والانتظام، وإنما يظهر الفساد في حياة الإنسان والكون بفساد الفطرة الإنسانية التي تدعو الإنسانَ إلىٰ المَحبَّة والسلام، قال تعالىٰ: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [سورة الروم، آية: ٤١].

(لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) إلىٰ الأصل الذي تركوه، وهو أصل الصلاح، ورجوعهم يكون بالإصلاح لما أفسدوه في حياتهم، وباستهدائهم المنهج، وإحسانهم العمل.

٣- وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأعراف، آية: ٨٥].

أَمَرَ نَبِيُّ الله شُعَيْبٌ عليه السلام قومَه بأن يُتِمُّوا للناس حقوقَهم ولا يُنقِصوهم إياها. وأَمْرُهُم بضبط الميزان هو ضبط العلاقات، وهو الحكم بالحق والعدل والمساواة، وهذا صلاح الإنسان والأرض علىٰ السَّواء.

٤- وأمر الله قارون عندما طغىٰ وأفسد وقطع العلاقات مع الخَلْق والخالق، وظن أنه يستطيع الاعتمادَ علىٰ نفسه وُجودًا وحفاظًا- فقال تعالىٰ: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة القصص، آية: ٧٧].

٥- وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَا ۚ﴾ [سورة البقرة، آية: ١١٤].

لا أظلم ولا أفسد ممن منع الإصلاح الذي يُقيمُه أولياءُ الله في بيوت الله، بذكره وتعليم منهجه، ولا أظلم ممن سعىٰ في خرابها،

مـادِّيًا بإزالـة البنيـان، ومعنـويًّا بالاعتـداء علـىٰ دَورهـا الإصـلاحي، أو تهميش دورها في المجتمع حتىٰ تصبح عاجزةً عن تزكية النفوس وتلقينهـا العلـم والمعرفـة اللـذَين يَهْـدِيَا الإنـسان إلـىٰ إدراك الحـق والعـدل والـصلاح، وفـي ذلـك اعتـداء علـىٰ حريـة الإنـسان وحرية العقيدة.

ولـو أخـذنا لفـظ (مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ) علـىٰ عمومـه بمعنـىٰ الأرض كلهـا؛ فقد جعلت الشريعةُ الأرضَ مسجدًا وطهورًا، بنص رسول الله ﷺ- لكـان تأويـل الآيـة: لا أظلـم ممـن سعـىٰ فـي الأرض فسادًا باعتدائه علـىٰ المـنهج والفكـر أو باعتدائـه علـىٰ البيئـة والبنـاء الحـضاري الإنساني.

٦- وقـال تعـالىٰ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة الأعراف، آية: ٥٦].

٧- وقـال تعـالىٰ: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآيتان: ١٥١-١٥٢].

٨- ونهىٰ النبي ﷺ أصحابَه عن الفساد في الأرض، فأوصاهم وهـم يـستعدون للقـاء العـدو: «**ألا تَغُلُّـوا وَلاَ تَغْـدِرُوا وَلاَ تَمْثُلُـوا**

وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا»[1]. [وَلاَ تَحْرِقُوا كَنِيسَةً، وَلاَ تَعْقِرُوا نَخْلاً][2].

وهذه الوصية كررها أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- لجيش أسامة بن زيد حين قال: وَإِنِّي مُوصِيكَ بِعَشْرٍ: لاَ تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً، وَلاَ صَبِيًّا، وَلاَ كَبِيرًا هَرِمًا، وَلاَ تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا، وَلاَ تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا، وَلاَ تَعْقِرَنَّ شَاةً وَلاَ بَعِيرًا إِلاَّ لِمَأْكُلَةٍ، وَلاَ تَحْرِقَنَّ نَخْلاً، وَلاَ تُفَرِّقَنَّهُ، وَلاَ تَغْلُلْ، وَلاَ تَجْبُنْ[3].

فالمسلم صاحب رسالة سلام لكل شيء، وليس حربًا على الطبيعة أو على الإنسان، وليس عابثًا أو مُدَمِّرًا.

العَلاقة بين الحب والفساد:

وإنه ليوجد ارتباط عكسي في آيات الله بين الفساد والحب.

قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة المائدة، آية: ٦٤].

---

(١) أخرجه مسلم: ١٣٥٦/٣ برقم (١٧٣١).

(٢) وهذه الزيادة أخرجها عبد الرزاق في «مُصَنَّفِه»: ٢٢٠/٥ برقم (٩٤٣٠).

(٣) أخرجه مالك في «المُوَطَّأ»: ٤٤٧/٢ برقم (٩٦٥).

العداوة والبغضاء تؤدي إلىٰ الحرب والاعتداء، وهي سعيٌ في الأرض بالفساد.

و(ٱلْمُفْسِدِينَ) في قوله: (وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ) اسم فاعل من الفعل الرباعي أَفْسَدَ، وفيه إشارة إلىٰ أن الحب والسلام والصلاح هو أصل الخلق، والعداوة والبغضاء هي إفساد للأصل، وفي هذه الآية يخبرنا سبحانه عن عدم حبه للفاعلين الفساد، وفي آية أخرىٰ أخبرنا سبحانه عن عدم حبه لجنس الفساد فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [سورة البقرة، آية: ٢٠٥].

وأَمَرَ الشَّرعُ الإسلامي بحماية الإنسان من نفسه، ولم يُعْطِه الحقَّ في قتلها أو إفسادها، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة البقرة، آية: ١٩٥].

فالله -سبحانه- يحب المحسنين ولا يحب المفسدين، يحب المُقسطين ولا يحب المُعتدين.

الإسلام والنهي عن الإسراف

الإسراف يعتبر تبديدًا لموارد الحياة، وقد نهىٰ الله عنه.

١- قال تعالىٰ: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [سورة البقرة، آية: ٦٠].

فقد جعل -سبحانه وتعالىٰ- لكل سِبْطٍ من بني إسرائيل مَشْرَبًا من الحَجَرِ، وأعلمهم به كي لا يطغىٰ سِبطٌ علىٰ حق غيره، وقد فعل ذلك -سبحانه- لِما علمه من أمرهم من كثرة الاختلاف وكثرة التطلع إلىٰ نصيب الغير، ولكي لا يسرف أحدهم في الانتفاع بمشربه طامعًا في الاعتداء علىٰ حق غيره في انتفاعه بمشربه، ثم أعقب -سبحانه- ذلك بالنهي عن الفساد والذي يؤدي إليه الإسراف والاعتداء علىٰ حق الغير في الانتفاع.

فالإسراف يعتبر استنزافًا لموارد البيئة، ويؤدي حتمًا إلىٰ تشويهها، ويهدد وجودَ الإنسان حاضرًا ومستقبَلًا. وقد وردت آيات عديدة تَنهىٰ عن السَّرَف، وتأمر الإنسان بالوسطية والاعتدال:

٢- قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [سورة الإسراء، الآيتان: ٢٦-٢٧].

٣- وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [سورة الإسراء، آية: ٢٩].

٤- وقال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [سورة الفرقان، آية: ٦٧].

٥- وقال تعالىٰ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [سورة الأعراف، آية: ٣١].

والإسراف اعتداء علىٰ حق الآخرين في الحياة، وعلىٰ حقهم في تحصيل ضروريات العَيْش، كالأكل والشرب من رزق الله.

الإسلام والأمر بالمشاركة في الانتفاع بما سَخّرَه الله في الكون

ومفهوم التسخير الإلهي كما يتضح في المنظور الإسلامي يُوجِب المساواة والمشاركة بين الناس جميعًا في التمكين من الانتفاع بمنافع الكون، وفي توفير القدر اللازم لاستمرار حياة الإنسان.

١- قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [سورة البقرة، آية: ٢٩].

والآية فيها أكثر من دلالة علىٰ العموم، عموم النفع لعموم الجماعة الإنسانية، فالضمير في (لَكُم) والاسم الموصول (مَّا) و(جَمِيعًا) فيها دلالات العموم. و(جَمِيعًا) في مكانها من سياق الجملة يَصِحُّ أن تكون تأكيدًا علىٰ العموم الذي أفاده الاسم الموصول، ويصح أن تكون تأكيدًا علىٰ الضمير في (لَكُمْ) فيكون التأويل حينئذ إما: هو الذي خلق لكم جميعًا ما في الأرض. أو: هو الذي خلق لكم جميعَ ما في الأرض.

والاشتراك بين الناس جميعًا في أَحَقِّيَّةِ الانتفاع بضروريات الحياة أوجبته الشريعةُ الإسلامية من منطلَق المساواة في الإنسانية؛ ولذلك فيجب على المسلم أن يتعاون مع غيره في القيام بواجبات المحافظة على البيئة ورعايتها، كما اشتركا في حقوق الانتفاع بخيراتها، ولكن المسلم يتحمل واجبا أكبر من غيره، حيث ألزمته الشريعةُ تَحَمُّلَ واجب الدعوة إلى المنهج السَّويِّ والدين القويم، والذي يمثل الشِّقَّ الآخرَ من عملية الإعمار.

٢- وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [سورة الأعراف، آية: ٢٤].

(وَلَكُمْ)، أي: لجميعكم، وتفيد عموم الإنسان.

(فِي ٱلْأَرْضِ)، أي: جميع الأرض، وتفيد عموم المكان.

(مُسْتَقَرٌّ)، أي: موضع استقرار وأمان تتوفر فيه الضروريات الحياتية: المادية من غذاء ومُتَنَفَّس وحركة، والمعنوية من احترام وتكريم وحرية وعدل.

(وَمَتَٰعٌ)، أي: موضع تتحقق فيه جماليات وتحسينيات تُوَفِّرُ للإنسان الراحةَ والمتعة في إقامته على الأرض.

(إِلَىٰ حِينٍ): إلى انقطاع الدنيا، وتُفيد امتداد الزمان.

والآية الكريمة جمعت كلَّ مفردات الوجود المشهود: الإنسان والمكان والزمان وأصول الحياة والجمال.

والآية وإن جاءت في صيغة خبرية ولكنها تُنْبِئُ الإنسان بمفهوم يترتب علىٰ استقراره في عقيدته عدةُ أوامر شرعية، تتعلق بمهمته في إعمار الكون وخلافته فيه بالحق الإلهي، فمن ذلك تشير إلىٰ أَحَقِّيَّةِ بني آدم جميعًا في الانتفاع بما في الأرض جميعِها بما يوفر لكل فرد منهم الأمن والاستقرار والتمتع بجماليات الكون المُسَخَّر، وأن يستمر هذا الانتفاع طيلة بقائه في الدنيا، وأنه هناك مقدار أَوَّلِيٌّ يشترك فيه جميع الناس بِقَدْرٍ متساوٍ، وبِناء علىٰ ذلك فلا يحق لإنسان أن يحتكر حق غيره في الحياة والوجود بأن يستحوذ علىٰ القدر الذي يُمَكِّنُهُ من العيش آمنا حُرًّا كريمًا، عنده ما يكفيه من المأكل والمَلبَس والمسكن وبقية الضروريات والجماليات الأساسية.

٣- قال تعالىٰ: ﴿وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [سورة فصلت، آية: ١٠].

والشاهد في الآية قوله: (سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ). فكلمة (سَوَآءً) تشير إلىٰ معاني المساواة والمشاركة، فالله -سبحانه وتعالىٰ- قَدَّرَ في الأرض الأقوات والأرزاق للناس جميعًا، بمعنىٰ أنها لن تضيق بهم،

ولن تعجز يومًا عن كفايتهم الغذائية، ولن تُعطِي سائلًا وتمنع آخر، بل ستستجيب للجميع على سواء؛ وذلك لأنه لم تتعلق مشيئة الله أن تكون الأرزاق حِكرًا على جِنسٍ دون آخر أو دُولَة بين فئة وجماعة دون أخرى، بل جعلها سواء للسائلين.

ولم يجعل الله عطاءه في الكون مرتبطًا بالاختيارات العقائدية للإنسان، فالكون يعطي الإنسان بصفته إنسانًا مخلوقًا لله، يعطيه على قدر جهده وعلمه، وعلى قدر موافقته لسُنن الكون وقوانين تسخيره، وليس الأمر مرتبطًا بإيمان أو كفر؛ لأن الله -تبارك وتعالى- أراد من الإنسان أن يأتيه طوعًا مختارًا محبًّا، ولو شاء سبحانه أن يُعَنِّته لَفَعَل، أو يجبره لجاء كما جاءت غيره من الكائنات ولم يتخلف، ولكي لا تكون الحاجة إلى الطعام والشراب أو طلب الأمن دافعًا مُرغِمًا على الإيمان جعلها الله سواء بين من آمن به ومن كفر.

٤- وقال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ [سورة القمر، آية: ٢٨].

فالماء هو أصل الحياة على الأرض، وبدونه يهلك الإنسان والحيوان؛ ولذلك وجب على الجميع اقتسامُه، ولا يُحرَم منه إنسان.

وهذا التصور الإسلامي يَبْعُدُ كثيرًا عن المعاني العُدوانية أو الاحتكارية الموجودة في المذاهب المادية، التي تُصوِّر الإنسانَ مالكًا مطلقًا ليس عليه سلطان فيما يملك، ولكن التصور الإسلامي تَشِيع فيه قِيَم الأمانة ومعاني المحبة والسلام.

وفي السنة النبوية الكثير من معاني التكافل والمشاركة بين الناس:

٥- قال ﷺ: «**الْخَلْقُ عِيَالُ اللهِ، وَأَحَبُّ عِبَادِ اللهِ إِلَى اللهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ**»[(١)].

٦- وقد قضىٰ النبي ﷺ بإشراك الناس في عهده في ثلاثة أشياء، هي: الماءُ والكَلَأُ والنار، وهي تمثل مصدر الحياة ومصدر الغذاء ومصدر الطاقة، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْمُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثٍ، فِي الْمَاءِ وَالْكَلإِ**[(٢)] **وَالنَّارِ، وَثَمَنُهُ حَرَامٌ**». قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: يَعْنِي الْمَاءَ الْجَارِيَ[(٣)].

---

(١) أخرجه الطَبَراني في «**الأوسط**»: ٣٥٦/٥ برقم (٥٥٤١)، والبَيْهَقِي في «**شُعَب الإيمان**»: ٤٣/٦ برقم (٧٤٤٥)، وأبو يَعلىٰ في «**مُسنده**»: ٦٥/٦ برقم (٣٣١٥).

(٢) العشب رطبًا كان أو يابسًا.

(٣) أخرجه أبو داود: ٣٠٠/٢ برقم (٣٤٧٧)، وابن ماجَه: ٨٢٦/٢ برقم (٢٤٧٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «ثَلاَثٌ لاَ يُمْنَعْنَ: الْمَاءُ وَالْكَلأُ وَالنَّارُ»[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لاَ يُمْنَعُ فَضْلُ الْمَاءِ لِيُمْنَعَ بِهِ فَضْلُ الْكَلأ»[2].

وجاء في بعض الروايات: «النَّاسُ شُرَكَاءُ».

والحديث الثاني والثالث يفسران الحديثَ الأول، بما يعني أن النبي ﷺ يخبرنا بأن الله جعل الأشياء الثلاثة مشتركة بين الناس، ولا يعني ذلك أن النبي ﷺ يوجب تقسيمها عليهم، ولكن غاية الأمر أنه يحق لكل شخص أن ينتفع منها بقدر حاجته، ويترك الباقي يذهب لغيره أو يسير في دورته في الكون.

والمشاركة تكون في أشياءَ كثيرة مما سخره الله للإنسان لينتفع به، ولكن الرسول ذكر الثلاثةَ لأهميتها، وفي روايات زاد عليها المِلح، وهذا قضاء من النبي ﷺ بصفته حاكمًا بين المسلمين، وكان المَقْصِدُ والعِلَّةُ من وراء هذا الحكم هو منع احتكار مثل هذه

(١) أخرجه ابن ماجه: نفس الموضع السابق، حديث رقم (٢٤٧٣).

(٢) متفق عليه، البخاري: ٦/٢٥٥٤ برقم (٦٥٦١)، ومسلم: ٣/١١٩٨ برقم (١٥٦٦).

الأشياء الضرورية اللازمة لحياة الإنسان وغيره على الأرض، وعليه فيجوز للحاكم المسلم أن يقضي من الأحكام والقوانين التي تمنع من احتكار الأشياء اللازمة لحياة الإنسان وصلاح البيئة.

والماء خاصة لا يَصبِر على الحرمان منه كائنٌ حي؛ ولذلك تَوَعَّدَ النبي ﷺ من يقوم على ماء في موطن شدة وحاجة فيشرب منه ويمنع فضلَه ابنَ السبيل، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ثَلاَثَةٌ لاَ يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ رَجُلٌ كَانَ لَهُ فَضْلُ مَاءٍ بِالطَّرِيقِ، فَمَنَعَهُ مِنِ ابْنِ السَّبِيلِ**»[1].

٧- والإسلام احتَرَمَ الملكية الفردية ومع ذلك أقر الملكية الجماعية، وجعل تنمية البيئة والمحافظةَ على مُدَّخراتها دائرًا بين هاتين الملكيتين، فغريزة التملك والسيطرة لدى الإنسان مُحترَمةٌ ومُعتبَرةٌ شرعًا، ولكن لا بد ألا تطغى على حق الجماعة في الانتفاع بضروريات الحياة كالماء والهواء والغذاء الضروري. وقد جعل الإسلام الملكيَّة -سواء كانت فردية أو جماعية- تعمل في خدمة الوجود الإنساني، فالإسلام يجعل حفظ البيئة دائرًا في مستويين من الحفظ، حفظ الفرد بصفته مالكًا أصليًا أو خليفة مباشرًا،

(١) أخرجه البخاري: ٢/٨٣١ برقم (٢٢٣٠).

وحفظ المجتمع والدولة والقانون بصفتهم مسئولين عن حفظ الممتلكات الفردية، وضمانها، وصيانتها من الاعتداء، ومعاقبة من يهدرها أو يُفَوِّتُ علىٰ الفرد والجماعة نفعَها.

فالملكية الفردية في المنظور الإسلامي سبيل وعامل يَحفِزُ علىٰ حفظ البيئة من باب تحفيزه علىٰ العمل والإتقان، ويتضح لنا كيف استخدم النبي ﷺ الملكية الفرديةَ في تنمية البيئة وزيادة كفاءتها وعطاءها للإنسان، حيث قال ﷺ: «**مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ وَلَيْسَ لِعِرْقٍ ظَالِمٍ حَقٌّ**»(١).

والْأَرْض الْمَيْتَة هِيَ الَّتِي لَمْ تُعَمَّر، شُبِّهَتْ عِمَارَتُهَا بِالْحَيَاةِ وَتَعْطِيلُهَا بِالْمَوْتِ.

وفي هذا الحديث احترامٌ للعمل وتحفيز عليه، وتقدير للمجتهد ومكافأته، وفيه جعلُ الملكية الفردية دافعًا للأفراد إلىٰ التعمير والبناء.

---

(١) أخرجه أبو داود: ١٩٤/٢ برقم (٣٠٧٣) والترمذي: ٦٦٢/٣ برقم (١٣٧٨) بهذا اللفظ عن سعيد بن زيد، وقد أخرجه البخاري: ٨٢٣/٢ برقم (٢٢١٠) بلفظ: «**مَنْ أَعْمَرَ أَرْضًا لَيْسَتْ لأَحَدٍ فَهُوَ أَحَقُّ**» عن عائشة، وأورد تلك الزيادة: «**وَلَيْسَ لِعِرْقٍ ظَالِمٍ فِيهِ حَقٌّ**» عن عمرو بن عوف تعليقًا.